

الثورة الفلسطينية

بين وقف النار ووقف الانتفاضة

أعلن السيد ياسر عرفات، رئيس السلطة الفلسطينية، وقف إطلاق النار إثر العملية الاستشهادية التي نفذها شاب فلسطيني في عاصمة الكيان الصهيوني، تل أبيب، فوق ضحيتها واحد وعشرون قتيلاً وأكثر من مئة جريح. لقد أعلن وقف إطلاق النار ولم يعلن وقف الانتفاضة. فما الفرق؟

لقد تبدل وجه الثورة الفلسطينية، ونحن لا نتردد في تسميتها ثورة، فتحوّلت تدريجياً من انتفاضة سلاحها الأوحدهجارة إلى حرب تحرير سلاحها الناري متواضع ولكنه سلاح ناري، فيه المسدسات والبنادق والرشاشات والهاونات، وأفعل من كل ذلك وأجدى القنابل البشرية التي ترتدي وجه العمليات الاستشهادية.

لا بد من وقفة هنا عند ظاهرة القنابل البشرية. لطالما كنت أقول: إذا كانت إسرائيل تتفوق على العرب بامتلاكها القنبلة الذرية (بفتح الذال) فالعرب يتفوقون على إسرائيل بامتلاكهم قنبلة ذرية (بضم الذال). والمقصود ليس تفوق العرب على إسرائيل عدداً فحسب، بل أيضاً بروح التضحية والفداء التي جعلت من الإنسان العربي سلاحاً لم يبتدع أرباب التكنولوجيا الحربية المتطورة في العالم سلاحاً مضاداً له على غرار المضادات للدروع والطائرات والصواريخ.

أذكر أنني قرأت في صحيفة أنترناشيونال هيرالد تريبيون مقالاً لبنيامين نتانياهو، يوم كان دبلوماسياً في السفارة الإسرائيلية في واشنطن، قال فيه ما

مؤداه أن العرب يتفوقون على الإسرائيليين عدداً فيما الإسرائيليون يتفوقون على العرب نوعاً (أي في نوعية المواطن)، ولكن الخوف الإسرائيلي هو أن يتحول التفوق العددي العربي مع الزمن إلى تفوق نوعي خصوصاً أن العرب يملكون الثروة والإمكانات لتطوير أنفسهم مع الزمن.

ومن حقنا أن نقول اليوم إن التفوق النوعي العربي ممكن التحقيق على مستويين: على مستوى التقدم الحضاري الذي يمكن للعرب أن يحققوه مستقبلاً (وقد كان لهم تاريخ حضاري)، كما على مستوى استعداد الفرد العربي للتضحية بالذات فداء قضية الأمة. وهذا المعنى الأخير ثبت من خلال العمليات الاستشهادية التي سجّلها المقاومون للاحتلال في لبنان خلال معركة التحرير، والتي سجّلها أبناء الانتفاضة الفلسطينية خلال الأشهر الأخيرة.

هذه الظاهرة تستحق التبصّر من قبل أولئك الذين يصرون على التصدي للانتفاضة الفلسطينية، وكأنما هي مشكلة أمنية يتكفّل حلّها مدير الاستخبارات المركزية الأميركية تحت عنوان المبادرة المصرية - الأردنية، أو تحت غطاء تقرير ميتشل الذي يقوم على وقف إطلاق النار وتجميد (وليس إلغاء) حركة الاستيطان الإسرائيلي في الأرض العربية المحتلة، ثم، بعد فترة اختبار، استئناف محادثات التسوية بين الفلسطينيين والإسرائيليين. هذا مع العلم أن وقف الانتفاضة سيكون من شأنه إسقاط ورقة التفاوض الوحيدة التي يملكها الفلسطيني اليوم، ومن دونها فهو أقرب إلى أن يكون مطالباً منه مفاوضاً، والتفاوض مع الإسرائيلي سيكون في تلك الحال من غير طائل. فالتفاوض يفترض وجود أوراق تفاوضية لدى الفريقين يتبادلانها للوصول إلى تسوية. والفلسطيني لم يعد يملك من أوراق التفاوض غير الانتفاضة، أي أمن إسرائيل.

وهذا سبب إضافي للقول إن إعلان عرفات وقف إطلاق النار يجب أن لا يعني بالضرورة وقف الانتفاضة. فالانتفاضة يمكن أن تستعيد الوجه الذي انطلقت به، أي بسلاح الحجارة، وأنا من الذين يرون أن الانتفاضة هي أقوى بالحجارة منها بالأسلحة النارية. فلسوف تستحوذ إذ ذاك على تعاطف الرأي العام العالمي وتفهمه، وتسقط نهائياً مزاعم إسرائيل وأخباريستها التي توهم

العالم أن الانتفاضة إنما هي عمل «إرهابي». هذا فضلاً عن أن الأسلحة النارية التي تمتلكها إسرائيل ستبقى، في كل الأحوال، هي المتفوقة على أي سلاح قد يصل إلى يد الفلسطيني مهما بلغ هذا السلاح من التطور.

قيل في تفسير دخول الأسلحة النارية المعركة في الجانب الفلسطيني إن وحشية الإسرائيلي وشراسته وغطرسته فرضت تطور الثورة الفلسطينية من كونها انتفاضة إلى صيرورتها مقاومة لا بل حرب استقلال. أما وقد فرضت سياسات دول القرار في العالم، ولا سيما منها الولايات المتحدة الأميركية، منطلق وقف إطلاق النار، فإن حق الشعب الفلسطيني في حرّيته وأرضه وكرامته يفرض العودة إلى منطلق الانتفاضة المتسلّحة بالحجارة. ولا ندري أين تقع العمليات الاستشهادية من منطلق وقف إطلاق النار. وهل من قوة تستطيع إنهاء الانتفاضة بإجراءات أمنية ما دام وراءها شعب يتشبّث بحقوقه المشروعة في الأرض والقدس والعودة.

إننا هنا نتحدث عن الشعب الفلسطيني. ولا حاجة إلى التذكير بأن الشعب الفلسطيني في كل ذلك إنما يخوض معركة المصير والكرامة عن الأمة العربية بأسرها. ذلك لأن الذين يتقصّدون إخماد الانتفاضة إنما يرمون إلى القضاء نهائياً على قضية، هي قضية العرب المركزية. وسيكون لبنان أول المتضررين من سحق الانتفاضة لا سمح الله، أولاً لكون اللبنانيين من الأمة العربية التي ستلحق بها النكبة، وثانياً لأن ذلك سيؤدي إلى عواقب وخيمة منها سقوط حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة، وبالتالي تفرّغ شعار رفض التوطين من مضمونه.